مقدمة :
أقدم مهنة وأحدث اهتمام!!!

فى هذه المقاربة الثقافية لعلم البيولوچيا، لا نعنى بتقديم التفاصيل الدقيقة للعلم، التى تمتلئ بها الكتب المدرسية، بقدر عنايتنا بتجلياتها فى ثقافة الإنسان، ورؤيته لنفسه ومجتمعه، ودورها فى تشكيل ماضيه وحاضره ومستقبله.

وعند شروعى فى كتابة هذه المقدمة، ألحت على قصة تعد نموذجاً دالاً على طبيعة هذه المقاربة. فمن أهم الموضوعات التى تعنى بها «ثقافة البيولوجيا»، التى تلخص رسالة الكتاب فى كلمتين، العلاقة بين الذكر والأنثى. وأرجو قبل الاسترسال فى سرد القصة أن نتوقف لحظات أمام هذه العبارة: «العلاقة بين الذكر والأنثى». لقد ذكرت الذكر قبل الأنثى بشكل تلقائى، وعنيت بهما ذكر الإنسان وأنثاه بشكل تلقائى أيضاً. لماذا؟ أدعو القارئ إلى أن يشاركنى التحليل الثقافى لهذه العبارة:

* هل يعد ترتيب الذكر قبل الأنثى انعكاساً للثقافة الذكورية

للإنسان، فى كل مكان وليس عندنا فقط؟ وهل لو كان الكاتب امرأة ستعكس الترتيب؟ أم أن الأمر يتم بحياد، لا يستحق أن نقف حياله؟ وإذا نجحت الحركات النسائية فى عكس الترتيب، هل يكون ذلك صحيحاً؟

* عندما نعنى تلقائياً الإنسان بالذات كما ذكرنا، ألا يؤكد ذلك ما يذهب إليه بعض الفلاسفة والعلماء، من أننا نرى العالم ذاتيا وليس موضوعيا؟ نراه ونستكشفه بعيون إنسانية، وفقاً لما يسمى «بالمبدأ الإنسى»؟ إن الذكر والأنثى بيولوجيا أمر شديد الشيوع فى عالم الحياة. حتى فى الكائنات الدقيقة هنالك ما يقابله وظيفيا. نحن نعرف ذلك جيداً، لكن ذكره للوهلة الأولى يترجم بشريا، وقد يكون ذلك أمراً طبيعياً، لأن الإنسان هو مركز اهتمام الإنسان.

* وإذا ما تجاوزنا الترتيب الذى يقدم الذكر على الأنثى، و«المبدأ الإنسى» الذى يقدم الإنسان على ما عداه، ألا يعد إيجابياً أن نعد مفهوم الإنسان مفهوما تكامليا يعنى الجنسين معاً دون حواش أو توضيحات تفرق بينهما؟

أنهما مكونان لنوع واحد، بزغا معاً، وتمكنا من البقاء معاً. وما بينهما من فروق بيولوچية، يعد تأكيداً للتكامل الوظيفى دون فوقية أو دونية لأحدهما على الآخر. إن برنامجهما التكوينى شديد التماثل، وانعكاس الجنس عندما تكون هنالك ضرورة طبية لذلك صار روتينياً، والتراث الهائل للتفرقة بينهما يعد ثقافياً ومجتمعياً بالأساس. ومن الموضوعية أن نتساءل: إذا كان تراث التفرقة ثقافيا كما ذكرنا، أليس هنالك أساس بيولوچى للثقافة؟ وإلى أى مدى يؤثر هذا الأساس على تحليلنا السابق؟

إن هذا التساؤل، الذى أنهينا به التحليل، يحتاج إلى معالجة تفصيلية، تتعرض للدراسات الخاصة بالتطور والثقافة والبيولوجيا الاجتماعية، وهى أمور ستتسع صفحات الكراسة للإشارة إليها باختصار. وفى معرض هذه المقدمة، دعونا نكتفى بذكر أن الإنسان كائن «بيوثقافى»، وأن الثقافة هى جزء من طبيعته البيولوچية، وأنها أكثر الأجزاء تأثراً بالبيئة، وأن التفاعل المتسلسل بينهما ينتج كل ما نشاهده من أشكال معقدة من

التطور الاجتماعى، منذ بزوغ الإنسان وحتى العولمة، بل والتبشير بعصر ما بعد الإنسان، المندمج مع تكنولوچياته المتقدمة والمنتشر فى الفضاء الخارجى!!!

إن التحليل السابق يقودنا إلى القصة التى ألمحت إليها، قبل التوقف أمام ترتيب الذكر والأنثى، ومدى تعبيره عن التراتبية فى ثقافات البشر الذكورية بالأساس. لقد شد انتباهى منذ الصغر، ومن مصادر متعددة يصعب ذكرها بالتحديد، مقولة أن أقدم مهنة فى التاريخ هى البغاء، حيث تقدم الأنثى جسدها الضعيف للذكر القوى، مقابل قطعة اللحم الشهية التى يقتطعها من الصيد الثمين، الذى اصطاده مع غيره من الذكور الذين يفعلون مثله طلبا للقاء جنسى مدفوع الثمن. لم أرتح مطلقا لهذه القصة، وما تقدمه من إسقاط معاصر ومغلوط على ما حدث فى المجتمعات القديمة أو البدائية كما يصفها البعض، وإن كان هنالك ما يراجع هذا الوصف فلسفيا فى ضوء مدى تكيفها الناجح مع ظروفها، واستطاعتها الاستمار والبقاء، فبدون هذا التكيف والبقاء الذى نجح فيه أجدادنا القدامى، ما كنا لنبقى ونكتب عنهم وعن أنفسنا!!!

نعود إلى القصة المرفوضة لنتساءل: هل كان ذلك بغاءً أم تقسيما للعمل؟ إن البيولوچيا تعلمنا أن الطفل فى نوعنا يحتاج إلى فترة رعاية طويلة عن غيره من صغار الكائنات الأخرى. والإناث تقوم بإرضاعه وحمايته ورعايته، بينما يقوم الذكور بالحصول على الطعام عن طريق الصيد وغيره. وهنالك الكثير من الدراسات التى تؤكد مشاركة الإناث فى جمع الثمار بينما تحمل صغارها. وحتى الصيد لم تنعدم فيه المشاركة الأنثوية فى بعض المجتمعات. ويعد تقسيم العمل ثقافياً فى كثير من جوانبه، إذا ما استثنينا الحمل والرضاعة، كتقسيم بيولوچى للعمل، واستبعدنا «الألاعيب» التكنولوچية التى تؤكد إمكانية أن يحمل الذكور فى تجويف البطن، مع بعض الرعاية، ويرضعون أطفالهم مع بعض الهرمونات!!!

مما سبق نرجو أن نكون قد أوضحنا أن البغاء لم يكن أقدم مهنة فى التاريخ، ولم تمارسه المجتمعات الإنسانية البازغة فى عصور ما قبل التاريخ. وإن كنا ننكر أنه أقدم مهنة، فلابد وأن نعترف أنه مهنة قديمة، مورست حتى فى المعابد، وهذه قصة أخرى ليس هذا مجالها. ويبقى السؤال: ما هى أقدم مهنة فى

التاريخ؟ أخاطر وأقول أنها الاشتغال والانشغال بالبيولوچيا فى أشكالها وموضوعاتها الجنينية القديمة: التمييز بين الحى وغير الحى، وبين المفيد والضار، وبين القابل للاستئناس وغير القابل له، بين الجنس والإنجاب وبين الصحة والمرض، والحياة والموت... إلخ. وإن كان هذا الاسم قد أطلق للتعبير عن هذا العلم الحديث نسبياً فى مطلع القرن التاسع عشر. وأدى تطوره المتسارع، وما نشأ عن هذا التطور من تكنولوچيات أثارت الكثير من القضايا الأخلاقية والقانونية والاجتماعية، بل والسياسية والاقتصادية، إلى أن يوصف القرن الحادى والعشرين بقرن البيولوچيا. لقد وصف القرن التاسع عشر بقرن الكيمياء والميكانيكا، ووصف القرن العشرون بقرن الفيزياء، أما هذا القرن فهو قرن البيولوچيا وتطبيقاتها (التكنولوچيا الحيوية والهندسة الوراثية والچينوم وما بعده). إن البيولوچيا، كما نقدم قصتها الطويلة فى هذه الكراسة الصغيرة، هى «أقدم مهنة وأحدث اهتمام»!!!